من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم الدكتور محمد احمد خلف الله

(١)

عشقت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك وضاح اليمن الشاعر المعروف ، وكان وضاح من أجمل رجالات العرب ،فكانت ترسل اليه فيدخل اليها ويقيم عندها ، فاذا خافت وارته فى صندوق عندها وأقفلت عليه .

وذات يوم أهدى للوليد بن عبدالملك جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه ، فدعا خادما له فبعث به معه الى أم البنين. وقال : قل لها ان هذا الجوهر أعجبنى فآثرتك به .

دخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها ، فأدخلته الصندوق وهو يرى ، فادى اليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر ثم قال :

يامولاتى هبينى حجرا منه .

فقالت : لا يابن اللخناء ولا كرامة .

فرجع الى الوليد فأخبره .

فقال الوليد : كذبت يابن اللخناء ، وأمر به فوجئت عنقه .

ثم لبس الوليد نعليه ودخل على أم البنين وهى جالسة فى ذلك البيت تمتشط ، وقد وصف له الخادم الصندوق الذى أدخلته فيه ، فجلس عليه ثم قال لها :

يا أم البنين ، ماأحب اليك هذا البيت من بيوتك ، فلم تختارينه ؟

فقالت : أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب .

فقال لها : هبى لى صندوقا من هذه الصناديق .

قالت : كلها لك يا أمير المؤمنين .

قال : ما أريد كلها وانما أريد واحدا منها .

قالت له : خذ أيها شئت .

قال : هذا الذى جلست عليه .

قالت : خذ غيره فان لى فيه أشياء أحتاج اليها .

قال : ما أريد غيره .

قالت خذه يا أمير المؤمنين .

فدعا بالخدم وأمرهم بحمله ، فحمله حتى انتهى به الى مجلسه فوضعه فيه . ثم دعا عبيدا له فحفروا بئرا فى المجلس عميقة ، فنحى البساط وحفرت الى الماء .

ثم دعا بالصندوق فقال : ياهذا انه بلغنا شيء ان كان حقا فقد كفناك ودفناك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلا فانا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك .

ثم قذف به فى البئر وهيل عليه التراب ،وسويت الأرض ، ورد البساط الى حاله وجلس الوليد عليه .

ثم ما رئى بعد ذلك اليوم لوضاح اليمن أثر فى الدنيا الى هذا اليوم .

وما رأت أم البنين لذلك أثرا فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما .

***

(٢)

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ،كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته . وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ، ويركب حمارا مريسيا فى زى أهل الحجاز .

فبينا هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الاذن عليه فوقف على ماكان يقف الناس عليه فى القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم ـ أقبل أبو يوسف القاضى بأصحابه أهل القلانس ، فلما هجم على الباب نظر الى رجل يقف الى جانبه ويحادثه ، فوقعت عينيه على ابن جامع فرأى سمته وحلاوة عينيه فدنا فوقف الى جانبه ثم قال له :

امتع الله بك ، توسمت فيك الحجازية والقرشية .

قال : أصبت .

قال : فمن أى قريش أنت ؟

قال : من بنى سهم .

قال : فأى الحرمين منزلك ؟

قال : مكة .

قال : ومن لقيت من فقهائهم ؟

قال : سل عمن شئت .

ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب فأعجب به .

ونظر الناس اليهما فقالوا : هذا القاضى قد أقبل على المغنى وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع .

فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه .

ثم قالوا : لا ، لعله لا يعود الى مواقفته بعد اليوم ، فلم نغمه .

فلما كان الاذان الثانى ليحيى بن خالد غدا عليه الناس وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابن جامع فرآه ، فذهب فوقف الى جانبه فحادثه طويلا كما فعل فى المرة الاولى .

فلما انصرف قال له بعض أصحابه : أيها القاضى ، أتعرف هذا الذى تواقف وتحادث ؟

قال : نعم ، رجل من قريش من أهل مكة من الفقهاء .

قالوا : هذا ابن جامع المغنى .

قال : انا لله .

قالوا : ان الناس قد شهروك بمواقفته وأنكروا ذلك من فعلك .

فلما كان الاذن الثالث جاء ابو يوسف ونظر اليه فتنكبه ٠

وعرف ابن جامع أنه قد أنذر به ، فجاء فوقف فسلم عليه ، فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه ٠

فدنا منه ابن جامع ـ وعرف الناس القصة ـ وكان ابن جامع جهيرا فرفع صوته ثم قال :

يا أبا يوسف ، مالك تنحرف عنى ؟ أى شىء أنكرت ؟ قالوا لك : انى ابن جامع المغنى فكرهت مواقفتى لك ٠

أسالك عن مسألة ثم اصنع ماشئت٠

ومال النـــاس فأقبلـوا نحوهمـا يستمعون ٠

فقال : يا أبا يوسف ، لو ان أعرابيا جلفا وقف بين يديك فانشـدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

يادارمية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

أكنت ترى بذلك بأسا ؟

قال : لا ، قد روى عن النبى صـــلى الله عليه وسلم فى الشعر قول ، وروى فى الحديث ٠

قال ابن جامع : فان قلت أنا هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ٠

ثم قال : يا ابا يوسف ، رأيتنى زدت فيه أو نقصت منه ؟

قال : يا أبا يوسف ، أنت صـاحب فتيا ، ما زدته على أن حسنته بألفاظى فحسن فى السماع ووصل الى القلب ٠

ثم تنحى عنه ابن جامع ٠

***

(٣)

كان عمر بن أبى ربيعة جالسا بمنى فى فناء مضربه وغلمانه حوله اذ أقبلت أمرأة برزة عليها أثر النعمة ، فرد عليها عمر السلام ،

فقالت له : أنت عمر بن أبى ربيعة ؟

فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك ؟

قالت له : حياك الله وقربك ، هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها ، وأتمهم خلقا ، وأكملهم أدبا ، وأشرفهم حسبا ؟

قال : ما أحب الى ذلك ٠

قالت : على شرط

قال : قولى

قالت : تمكننى من عينيك فاشدهما وأقودك حتى اذا توسطت الموضع الذى أريد حللت الشد ثم افعل ذلك بك عند اخراجك حتى أنتهى بك الى مضربك ٠

قال : شأنك ٠

ففعلت ذلك به ٠

قال عمر : فلما انتهت بى الى المضرب الذى ارادت كشفت عن وجهى فاذا أنا بامرأة على كرسى لم أر مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلمت وجلست ٠

فقالت : أأنت عمر بن أبى ربيعة ؟

قلت : أنا عمر

قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟

قلت : ألست القائل : وأنشدت شعرا ٠٠ ثم قالت قم فاخرج عنى ، ثم قامت من مجلسها ٠

وجاءت المرأة فشدت عينى ثم أخرجتنى حتى انتهت بى الى مضربى وانصرفت وتركتنى ، فحللت عينى وقد دخلنى من الكآبة والحزن ما الله به أعلم، وبت ليلتى ، فلما أصبحت اذا أنا بها ٠

فقالت : هل لك فى العود ؟

قلت ! شأنك ٠

ففعلت بى مثل فعلها بالأمس حتى انتهت بى الى الموضع ، فلما دخلت اذا بتلك الفتاة على كرسى

فقالت : ايه يا فضاح الحرائر ٠

قلت : بماذا ؟ جعلنى الله فداءك

قالت : بقولك ٠٠٠٠ ثم قالت قم فاخرج عنى ، فقمت فخرجت ،ثم رددت٠

فقالت : لولا وشك الرحيل ، وخوف الفوت ، ومحبتى لمناجاتك والاستكثار من محادثتك ، لأقصيتك ، هات الآن كلمنى وحدثنى وأنشدنى ٠ فكلمت آداب الناس وأعلمهم بكل شىء ، ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلا الى البيت فأخذت أنظر ، فاذا أنا ٠ بإناء صغير فيه خلوق ، فأدخلت يدى فيه ثم خبأتها فى ردنى ـ كمى ـ وجاءت تلك العجوز فشدت عينى ونهضت بى الى مضربى ، فدعوت غلمانى فقلت :

أيكم يقفنى على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر وله خمسمائة درهم ٠

فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهضت معه فاذا أنا بالكف طرية واذا المضرب مضرب فاطمة ثبت عبد الملك بن مروان ، فأخذت فى أهبة الرحيل ، فلما نفرت نفرت معها فبصرت فى طريقها بقبقاب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك فقيل لها : هذا عمر بن أبى ربيعة ، فساءها أمره وقالت للعجوز التى كانت ترسلها اليه :

قولى له نشدتك الله والرحم أن تصحبنى ، ويحك ، ما شأنك وما الذى تريد ؟ انصرف ولا تفضحنى وتشيط بدمك ٠

سارت العجوز اليه وأدت اليه ماقالت لها فاطمة ٠ فقال :

لست بمنصرف أوتوجه اليه بقميصها الذى يلى جلدها ٠

فأخبرتها ففعلت ووجهت اليه بقميص من ثيابها ، فزاده ذلك شغفا ، ولم يزل ينبعهم لا يخالطهم حتى اذا صاروا على أميال من دمشق انصرف ٠